٢٧

من بلاغة التعبير القرآني في آيات الليل والنهار

دكتور

محمد محمد الطاهر محمد

مدرس البلاغة والنقد . كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

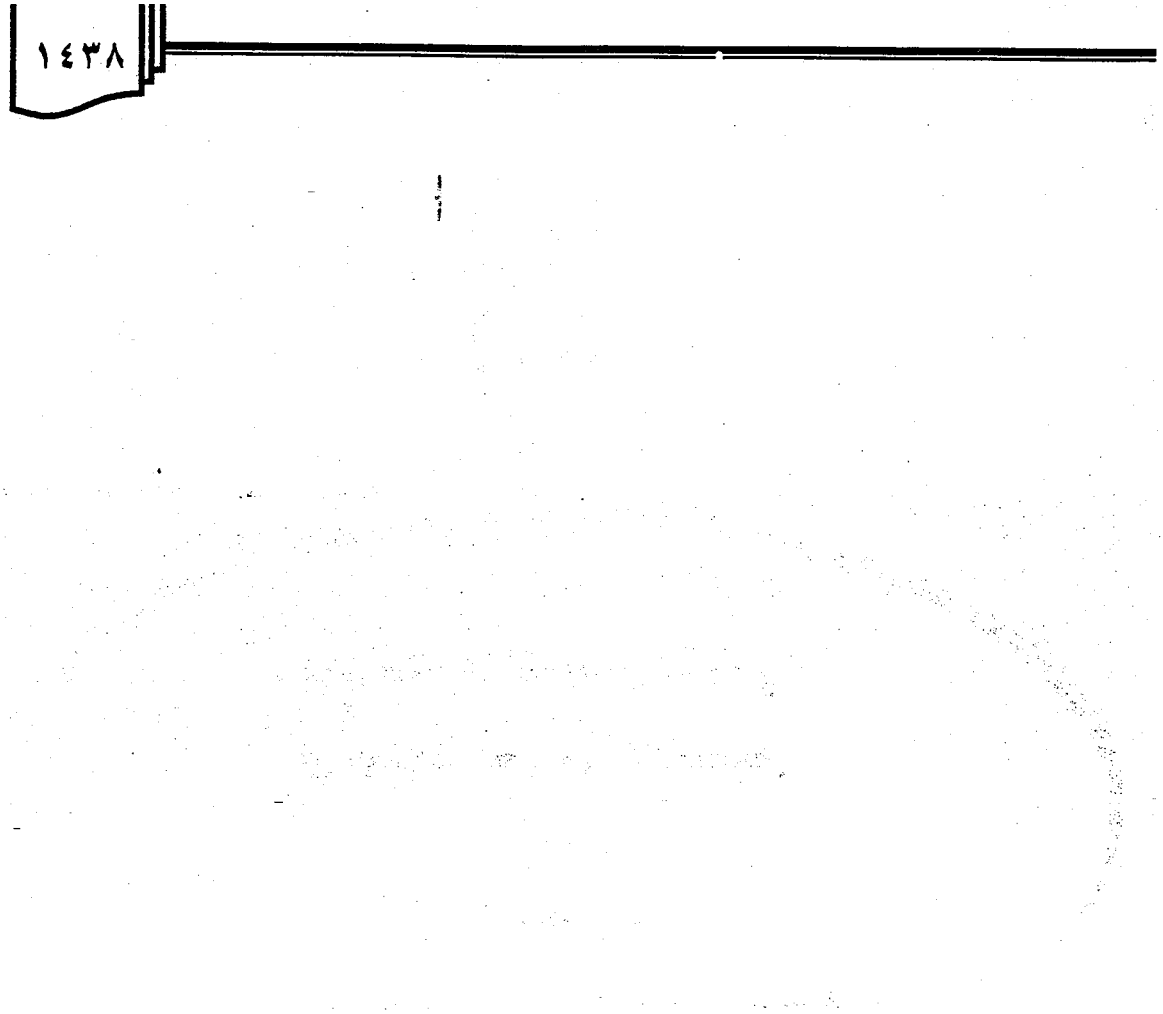

المقدمة

{ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ }"[١] آمين.

والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين والخلق أجمعين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الكرام، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين .

وبعد :

إن القرآن العظيم نعمة كبرى للبشرية، ومعجزة عظمى خالدة، أنزله الله عز وجل ليكون هدى ورحمة وبشرى وعظة للمؤمنين، وليكون زجرا ووعيداً وتهديدا للعصاة المجرمين.

فيه نبأ السابقين، وخبر اللاحقين، وهو الفصل ليس بالهزل، لا يشبع منه قارئ، ولا تهمل منه أذن سامع، ولا يدانيه شئ هو كلام الله تعالى، معجز بكل ما فيه، ألفاظه فيها إعجاز، ومعانيه بها إعجاز، تحدى به المولى سبحانه الثقلين فقال سبحانه { قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً }"[٢]

نعم:-

إنه كما قال عنه سبحانه: { وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ }"[٣] ، ولقد اشتملت آيات القرآن العظيم على ذكر نعم الله تعالى على خلقه، تذكيرا لهم بهذه النعم، وليجتهدوا فى شكرها بالتقرب إلى الله تعالى، واتخاذ تلك النعم وسيلة لإرضاء المنعم سبحانه، فتجد آيات القرآن العظيم فيها تفصيل لكثير من نعم الله عز وجل على خلقه، إظهاراً لعظم هذه النعم، وإجلالاً لها، وإكبارا لما لها من أهمية فى حياة البشر.

ومن أهم تلك النعم "الليل والنهار"، وقد اهتم القرآن العظيم بهذه النعمة أيما اهتمام، فأكثر من ذكرها، وإظهار آثارها على المخلوقات كافة، وجعلها آية عظمى من آيات الله تعالى فى الكون.

وتجد القرآن العظيم فى حديثه عن "الليل والنهار" تارة يقرر أنها آية من آيات الله فى الكون، قال سبحانه: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [٤] ، وقال سبحانه: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ... } [٥] وقال سبحانه: { آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ .... }[٦] .

---

(١) سورة الفاتحة.

(٢) الإسراء ٨٨.

(٣) الإسراء ١٠٥.

(٤) آل عمران ١٩٠.

(٥) فصلت ٣٧.

(٦) يس ٣٧.

وتارة تجد الحق سبحانه يقسم بهذه النعمة إجلالا لها وإكبارا لشأنها، وتعظيما لقدرها، قال سبحانه: { وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى*وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى }[٧] وقال سبحانه: { وَالضُّحَى*وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى }[٨] ، وقال سبحانه : { اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ }[٩]

وفى آيات أخرى تجد الحق سبحانه يبين أن تلك النعمة يسخرها سبحانه بقدرته، ويظهر أثرها فى الكون، قال الله تعالى : { وسخر لكم الليل والنهار } [١٠]، وقال سبحانه: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ* وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[١١]

وهكذا تجد الحديث عن الليل والنهار فى القرآن الكريم قد تنوع، وارتبط ذلك بالسياق والمقام، بما يظهر أن هذه النعمة لها ما لها، وفيها ما فيها من العبر والآيات، ويدلل على أهميتها ليس فقط للإنسان، وإنما لجميع المخلوقات من إنسان وحيوان ونبات كل ذلك وغيره كان دافعا لى نحو هذه الدراسة التى أتناول فيها نعمة "الليل والنهار" وما ذكره القرآن العظيم عن هذه النعمة، وإظهار فضلها على المخلوقات، وتنوع الحديث القرآنى عن هذه النعمة تبعا للسياق والمقام، مع تحليل الآيات القرآنية تحليلا بلاغيا ، وهذا البحث يشتمل على مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة ثم الفهارس والمراجع .

ففى المقدمة : أتحدث عن تنوع الحديث القرآنى عن الليل والنهار واختلاف السياق تبعا للحال والمقام .

وفى التمهيد : أتناول الليل والنهار من حيث كون ذلك مظهرا من مظاهر الطبيعة الدالة على القدرة الإلهية، وكيف فتن بها بعض ضعاف العقول فعبدوا من اعتقدوا أنه السبب فى تلك الظاهرة كالشمس، ثم تناولت تأثر الإنسان بتلك الظاهرة وكذلك الحشرات والنبات.

وفى المبحث الأول : أتناول الليل والنهار من حيث كونهما آية من آيات الله تعالى فى الكون، التى لا يستطيع فعلها إلا هو سبحانه وتعالى.

وفى المبحث الثانى : أتحدث عن القسم بالليل والنهار فى القرآن الكريم وذلك كله يدل عللا عظم المقسم به.

وفى المبحث الثالث : أتحدث عن فوائد الليل والنهار للإنسان وتأثره بتلك الظاهرة.

وفى المبحث الرابع : أتناول الليل والنهار من حيث كونهما زمن للطاعة والعبادة وفائدة التهجد ليلا وثواب ذلك.

ثم الخاتمة : وفيها ذكرت أهم نتائج هذا البحث.

وأسأله سبحانه العون والتوفيق إنه جل جلاله سميع الدعاء.

دكتور

محمد محمد الطاهر

---

(١) الليل ١، ٢.

(٢) الضحى١، ٢

(٣) الفجر ٤.

(٤) إبراهيم ٣٣.

(٥) القصص ٧١: ٧٣.

تمهيد

تعد ظاهرة "الليل والنهار" من الظواهر الطبيعية التي تدل على الخالق العظيم سبحانه، الذى وهب هذا الكوكب ما يناسب العيش فيه، وسخر للإنسان تلك النعمة التى هى من أهم أساسيات الحياة، وبدونها يستحيل العيش على هذا الكوكب الذى نعيش فيه وهو كوكب الأرض.

وظاهرة الليل والنهار تنتج عن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس حيث وجود دائرة الإضاءة، وهى الدائرة العظمى التى تفصل باستمرار بين نصف الأرض المضئ "النهار"، ونصفها المظلم "الليل"، وهذه الدائرة فى حركة دائمة لارتباطها بحركة الأرض المستمرة أمام الشمس مصدر الضوء.

وتقسم دائرة الضوء دوائر العرض إلى قسمين متساويين، فيتساوى طول الليل مع طول النهار على سطح الأرض، وذلك فى الاعتدالين الربيعى والخريفى، أما الانقلابيين الصيفى والشتوى فإن دائرة الضوء تقسم دوائر العرض التى تمر بها إلى أجزاء غير متساوية باستثناء دائرة الاستواء التى تقسمها إلى قسمين متساويين، وتلامس الدائرتين القطبيتين"[١].

وقد لمس الإنسان أهمية هذه الظاهرة التى وهبها الله سبحانه الوجود فاستقامت الحياة على ظهر الأرض، وتهيأت الظروف الملائمة للتعايش على هذا الكوكب ، وترتبط ظاهرة الليل والنهار-كما هو واضح- بالشمس التى هى بدورها من أجل نعم الله تعالى فى الكون.

وتبعا لوضع دائرة الضوء-الشمس-أثناء الانقلاب الصيفى الشمالى تصبح المناطق الواقعة وراء الدائرة القطبية الشمالية فى نهار مدته أربعا وعشرين ساعة فى اليوم، بينما العكس صحيح وراء الدائرة القطبية الجنوبية حيث الظلام مدته أربعا وعشرين ساعة فى اليوم.

ويؤدى هذا إلى تزايد طول النهار بالابتعاد عن دائرة الاستواء نحو القطب الشمالى، وتتناقص بالاتجاه نحو القطب الجنوبى،والعكس صحيح فى الانقلاب الشتوى الشمالى".[٢]

وقد فتن كثير من البشر بمنظر الشمس، فتجد ملكة "سبأ" وهى "بلقيس" كانت هى وقومها-قبل عبادتها لله تعالى- كانوا يعبدون الشمس من دون الله، كما حكاه القرآن العظيم فى قوله تعالى: { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ .....}[٣]

وفى العصر الفرعونى أطلقوا على قرص الشمس "واهب الوجود" ، وكما هو معروف عنهم فى معتقداتهم الفاسدة أنهم جعلوا لها إلها قائماً بأمرها وهو كما كانوا يطلقون عليه "إله الشمس رع".

وكان منهم عباد الشمس ، يسجدون لها إذا أشرقت. وإذا توسطت السماء، وإذا غربت، ولذا نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة فى هذه الأوقات،وقد عبدتها ثمود،ثم عبدتها تميم"[٤] ، وقد عبد الشمس أيضا عرب من "حمير" وبعض قبائل كنانة كانت تعبد القمر لأنه كان يضئ لهم مع النجوم ليلاً.

نعم، فالإنسان قديما قد نظر إلى السماء فوجد هذا الشئ المضئ الذى ينير الكون فعبده . رأى هذا النجم، ورأى فيه سر الحياة، وأنه القوة الباعثة للحرارة والدفء فتقرب إليه بالعبادة والتقديس"[٥]

---

(١) الجغرافيا العملية والخرائط د/أحمد مصطفى ١٢٢.

(٢) الجغرافيا العملية والخرائط ١٢٣

(٣) النمل ٢٣، ٢٤.

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلى د/أحمد الحوفى ٤٢١.

(٥) مدخل إلى الشعر الجاهلى د/محمد زغلول ٩٩.

ولذلك نهى القرآن العظيم عن عبادة الشمس التى فتن بها الناس قد يماً لأنها أساس النهار وسببه بكل ما فيه من نفع، فنبه سبحانه فى كتابه العزيز إلى أن هذا النجم المضئ إنما هو مسخر من قبل خالقه سبحانه فقال عز وجل :{ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره }[١] ، ويقول سبحانه :{ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ }[٢] .

ومع حركة الشمس الظاهرية هذه فإن اتجاه وطول الأشياء يتغير إذ يحدث أطول ظل فى أول النهار، ويكون اتجاهه ناحية الغرب، ثم يأخذ فى القصر تدريجيا حتى يصبح أقصر ظل عندما تكون الشمس فى أعلى وضع لها فى السماء، ويحل عندئذ وقت الزوال، المحلى "الظهر"، كما يحل على الأماكن الواقعة على نفس خط الزوال ثم يأخذ الظل فى الطول التدريجى مرة أخرى، حتى يصل إلى أطول ظل فى آخر النهار عند مغيب الشمس، ويكون اتجاهه ناحية الشرق"[٣]

نعم :

إن تأثر الإنسان بالطبيعة ظاهرة ملموسة، لذلك يستعد الإنسان لتقبل ظاهرة الليل، ويستغلها فى الراحة، ويستغل ظاهرة النهار فى العمل.

ولليل تأثير على نفسية الإنسان من خلال ظهور الأمراض النفسية والوساوس، فمعظم ذلك ينشأ فى الليل. أما النهار فإن الإنسان يرى فيه الآخرين، عكس الظلام فإن الإنسان يشعر فيه بالوحدة والانفراد والانعزال، ومن هنا ينشأ الخوف والوحدة والقلق والأمراض.

وإذا تركنا الإنسان وذهبنا إلى "الطير" نجد معظم الطيور –عدا الجوارح– تعود إلى أعشاشها مساءً، أما الجوارح كالنسور فإنها تنشط ليلاً.

وكذلك الحشرات فإن معظمها تخمد ليلاً وتسيح فى الأرض نهاراً ، وكذلك فإن النبات يتأثر بظاهرة "الليل والنهار" فإن نبات "دوار الشمس" مثلا يتبع حركة الشمس ميلاً فى اتجاهاتها المختلفة، ونبات "الأقحوان" ينكمش ليلاً متأثراً بظاهرة "الليل". كما أنه من المعروف أن النبات لا ينمو إلا فى الليل فقط، وأما فى النهار فإنه يقوم بعملية "الغذاء الضوئى".

وقد كان لليل أثر كبير فى نفوس الشعراء، فكثر ورود الحديث عنه فى شعرهم، وظهر أثره واضحا عليهم . يقول امرؤ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علىَّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيهـــا الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصبـاح منـك بأمثـل

ويقول قيس بن الملوح :

قتيـــل مَـــن الأشواق أما نهاره ... فبـــاك وأمـــا ليلـــه فأنيـــن

ولا يخفى ما فى هذا البيت من استعارة تصريحية تبعية فى صيغة المبالغة "قتيل من الأشواق"، وكذلك المجاز العقلى بعلاقة الزمانية حيث إن النهار زمان للبكاء، والليل زمان للأنين.

وغير ذلك مما يدل على أن ظاهرة "الليل والنهار" شغلت عقول البشر على اختلاف توجهاتهم من خاضع لله تعالى معترف بهذه النعمة وآثارها العظيمة فى الكون، وبين مفتون بالشمس عابد لها من دون الله، كذلك شغلت علماء الفلك والطبيعة وعلماء النبات، والحيوان أيضاً.

---

(١) الأعراف ٧٤.

(٢) سورة فصلت ٣٧.

(٣) الجغرافيا العملية والخرائط ١٢٥

ولما كان الليل وقتا للراحة والسكون، فإن الله تعالى قد امتدح الساهرين فى عبادة الله تعالى ليلاً، يقول سبحانه :" أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ "(١)

وقال سبحانه فى وصف أهل الجنة: " كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ*وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ".(٢)

فالمؤمن الذى يتعبد بالليل خالصا لله تعالى يستحق الإشادة به لأن الليل وإن كان وقتاً للنوم والراحة، فإن عبادة الله تعالى فيه لها من المزية الشئ العظيم.

ومعروف أن قيام الليل فرض عليه ﷺ ، سنة فى حق أمته(٣). يقول الحق سبحانه: { "يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً*نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً }(٤)

وقد قال ﷺ : "إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة "(٥) ، وعنه ﷺ قال: "أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل"(٦)

إذاً فإن الليل والنهار ظاهرة لها ما لها من الأهمية شغلت الباحثين قديما وحديثا على اختلاف اتجاهاتهم، تأملوا فى هذه الظاهرة فدرسوها كل فى تخصصه لما رأوا من آثارها فى الكون، وتأثر كل ما فى الكون بها.

والآن أبدأ فى تحليل الآيات القرآنية التى اشتملت على الليل والنهار تحليلاً بلاغياً يكشف ما بها من أسرار جمالية فأقول وبالله التوفيق وهو المستعان.

الليل والنهار فى القرآن الكريم

إن المتأمل فى كتاب الله تعالى يجد الحديث عن الليل والنهار فى القرآن العظيم قد تنوع ولم يأخذ طريقة واحدة فى التناول، فهناك آيات تحدثت عن الليل والنهار من حيث إنها آية من آيات الله تعالى فى الكون، وتجد أيضا آيات قرآنية تناولت الليل والنهار من حيث فوائدها وكون ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، وكذلك هناك آيات قرآنية تحدثت عن الليل والنهار من حيث كونها زمنا للعبادة والتهجد، وثواب ذلك عند الله سبحانه.

وتجد آيات أخرى ذكرت قدرة الله تعالى وإظهار تلك القدرة فى تعاقب الليل والنهار بهذا النظام المحكم، بينما تجد الحق سبحانه فى آيات أخرى يقسم بالليل والنهار.

ولذلك فإن ذكر الليل والنهار فى القرآن العظيم لم يكن على وتيرة واحدة، وإنما تنوع طبقا للسياق ومقتضيات الأحوال.

وتجد العديد من سور القرآن العظيم تحدثت عن الليل والنهار، حتى صار هذا الغرض القرآنى من أكثر الأغراض التى تناولها كتاب الله تعالى، وكان هذا التناول من جوانب عديدة.

وأيضاً فإن هناك سورا من القرآن العظيم سميت بما له صلة بالليل والنهار مثل سورة "الليل"، وسورة "الشمس"، وسورة "الضحى" وسورة "الفجر"، وكل ذلك يدل على أهمية الحديث عن الليل والنهار فى القرآن العظيم.

---

(١) الزمر ٩

(٢) الذاريات ١٧، ١٨.

(٣) ينظر: روح المعانى ١٣٩/١٥.

(٤) المزمل ١-٤.

(٥) ينظر التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم-الجزء الأول ٣١٤

(٦) السابق ١/ ٣١٤.

المبحث الأول

الليل والنهار من آيات الله تعالى في الكون

من الآيات القرآنية الشريفة التي تناولت "الليل والنهار" من حيث كون ذلك آية من آيات الله تعالى في الكون، الناطقة بالوحدانية والشاهدة على وجود الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }[١]

هذه الآية القرآنية جاءت عقب قوله تعالى: { وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }[٢]، وفي تلك الآية الشريفة دعوة إلى التوحيد وعبادة الحق سبحانه المستحق للعبادة، فهو عز وجل رحمن رحيم ومن رحمته بعباده أن سخر لهم آيات في الكون، تلك الآيات تدل على وحدانيته، ومن جهة أخرى فهي نعم من الرحمن الرحيم على خلقه. فجاءت الآية التالية بها ما بها من آيات ونعم تدل على الله تعالى، وذكر منها "الليل والنهار".

إذا يلحظ أن تناول هذه الآية الشريفة لليل والنهار جاء في سياق الحديث عن نعم وآيات الله تعالى في الكون الدالة على وحدانية الله تعالى، وانظر كيف ذكر "الليل والنهار" في مقدمة تلك الآيات التي اشتمل عليها الحديث، فجاء عقب ذكر السماء والأرض، وفي هذا ما فيه من الدليل على أهمية الليل والنهار من حيث كون ذلك من أكبر وأعظم آيات الله سبحانه في الكون الناطقة بالألوهية والوحدانية.

ومثل ذلك قوله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ }[٣]، وانظر إلى قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ }[٤]

إن الحديث عن الليل والنهار هنا جاء في سياق آيات الله في الكون وانفراده سبحانه بالتصرف في المخلوقات، كما تجد فيه مزجًا بين قدرة الله تعالى وكون ذلك آية من آياته في الكون، وبين إظهار نعمة الله تعالى وفضله على خلقه حيث سخر لهم هذه الآيات للتمتع بها والاستفادة منها.

والضمير "هو" يعود إلى الله تعالى فالله سبحانه جعل "الشمس" ضياء لينتفع الناس بضوئها في قضاء مصالحهم، وجعل سبحانه "القمر" نوراً أي شعاعا للانتفاع به وقت الحاجة إلى ذلك "ولذلك جعل نوره أضعف لينفع به بقدر ضرورة المنتفع، فمن لم يضطر إلى الانتفاع به لا يشعر بنوره ولا يصرفه ذلك عن سكونه الذي جعل ظلام الليل لحصوله".[٥]

---

(١) البقرة ١٦٤

(٢) البقرة ١٦٣

(٣) آل عمران ١٩٠

(٤) يونس ٥،٦

(٥) التحرير والتنوير ٩٤/١٠

ويلحظ أنه عند التعبير عن الشمس قال سبحانه "ضياء" وعند الحديث عن القمر قال "نورا" لأن الضياء أقوى من النور،كما أن النور تتفاوت درجاته.

"وياء" "ضياء" منقلبة عن الواو لوقوع الواو إثر الكسرة فقلبت ياء للتخفيف، وقوله "ضياء" و "نوراً" حالان مشيران إلى الحكمة والنعمة فى خلقهما والتقدير: "جعل الأشياء على مقدار عند صنعها " [١] ، ولما ذكر نعمة الضياء والنور عقب ذلك بنعمة معرفة الزمن المرتبطة بالشمس والقمر.

والتعريف فى "الحساب" للعهد أى الحساب المعروف،وهو الأيام والشهور، فعند معرفة الليالى تعرف الشهور، ومن معرفة الشهور تعرف السنة، وفى هذا ما فيه من ضبط الأوقات وانتظام الحياة، وتلك نعمة عظيمة منه سبحانه مرتبطة بآية الليل والنهار.

"والباء فى "بالحق" للملابسة، أى بمعنى الحكمة والفائدة، وفى هذا رد على المشركين الذين لم يهتدوا، ولما فى ذلك من الحكمة الدالة على الوحدانية ولذلك أعقب هذا بجملة "نفصل الآيات لقوم يعلمون" فهذه الجملة المستأنفة ابتدائية مسوقة للامتنان بالنعمة، ولتسجيل المؤاخذة على الذين لم يهتدوا بهذه الدلائل إلى ما تحوى عليه من البيان"[٢] ، وانظر إلى التعبير بصيغة المضارع "نفصل" أى نبين لإفادة التكرار.

وهناك أيضا تعريض[٣] بالذين لم يهتدوا بتلك الآيات بأنهم ليسوا أهل انتفاع بهذه الآيات لعدم رجاحة عقولهم .

وجاءت الآية الثانية: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..." كاستدلال آخر وآية أخرى على تفرده سبحانه بالألوهية والتصرف فى الكون، وهو استدلال باختلاف الليل والنهار، فهذا الليل بسكونه وظلمته جعل للراحة والنوم، وهذا النهار المضئ المشمس جعل للعمل والسعى للرزق، وهذا التعاقب بينهما فيه ما فيه من العبرة والعظة.

وانظر كيف افتتحت الآية الشريفة بحرف "إن" ثم جاءت اللام فى خبرها لأن المخاطبين الذين لم يهتدوا بتلك الآيات وأنكروها كآية من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته استحقوا الزجر والتعريض بهم.

"فالمقام إذا كان فى دائرة التساؤل والتردد، أو فى الإنكار الضعيف، فالتأكيد بإن وحدها ملاءمة للمقام، فإذا اشتد الإنكار جاءت اللام معها فى خبرها لدفع هذا الإنكار والقضاء عليه"[٤] . فلأن المخاطبين لم يهتدوا بتلك الآيات إلى الله تعالى نزلوا منزلة المنكر لها فجاءت اللام فى خبر "إن" .

"وجعلت الآيات هنا لقوم يتقون وفى آية البقرة لقوم يعقلون وفى آية آل عمران لأولى الألباب لأن السياق هنا تعريض بالمشركين الذين لم يهتدوا بالآيات ليعلموا أن بعدهم عن التقوى هو سبب حرمانهم من الانتفاع بالآيات، وأن نفعها حاصل للذين يتقون، أى يحذرون الضلال. فالمتقون هم المتصفون باتقاء ما يوقع فى الخسران فيبعثهم على تطلب أسباب النجاح فيتوجه الفكر إلى النظر والاستدلال بالدلائل".[٥]

ومن الآيات القرآنية الشريفة التى تناولت الليل والنهار من حيث كونهما آية من آيات الله تعالى قوله سبحانه: { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً..... }[٦] .

---

(١) السابق ٩٤/١٠.

(٢) التحرير والتنوير ٩٦/١٠

(٣) التعريض وهو أن يذكر المتكلم معنى لا يريده بذاته وإنما يريد التعريض بأمر آخر مثل قوله تعالى " إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ"، فالمعنى المراد هو ذم الذين لم يهتدوا ووصمهم لأنهم ليسوا من أصحاب العقول، وأيضا كما فى الآية المذكورة فى هذا الصياغ.

(٤) من أسرار التوكيد فى نظم القرآن الكريم، د/محمود عبد العظيم صفا ٢٣٥.

(٥) التحرير والتنوير ٩٨/١١.

(٦) الإسراء ١٢.

من المعروف أن الزمان لا يكمل الانتفاع به إلا بوجود الليل والنهار فبدون أحدهما لا يعرف الآخر، وجاءت هذه الآية الشريفة لتوضيح قدرة الله تعالى فى جعل الليل والنهار آيتين من آيات الله فى الكون الناطقة بالوحدانية، والشاهدة على الألوهية ، والفعل "جعلنا" بمعنى "صيرنا" متعد لاثنين، ويجوز بمعنى "خلقنا" فيتعدى لواحد.

"وتقديم الليل لمراعاة الترتيب الوجودى إذ منه ينسلخ النهار، وفيه تظهر غرر الشهور العربية، ولترتيب غاية النهار عليه بلا واسطة، ومما يزيد تقديم الليل حسنا افتتاح السورة بقوله تعالى: { سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً... }[1]

ويقول الزركشى: "وتقديم الليل على النهار فى قوله : "وجعلنا الليل والنهار آيتين.."لأنه سابق عليه فى الزمن ، ولذلك اختارت العرب التأريخ بالليالى دون الأيام، وإن كانت الليالى مؤنثة والأيام مذكرة، وقاعدتهم تغليب المذكر إلا فى التأريخ"[2]

"والمراد بقوله: { فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ } أى جعلناه مطموساً مظلماً لا ضياء فيه، وقيل معنى محو الليل إزالة ظلمته بالضوء[3]

وقوله تعالى : وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً " أى مضيئة، فيكون مجازا والعلاقة المسببة، ومن الممكن جعل ذلك من قبيل الإسناد المجازى أى يبصر فيه فتكون العلاقة الزمانية.

واللام فى "لتبتغوا فضلاً"للتعليل أى لتطلبوا الرزق والفضل فيه، فإن الرزق لا يطلب-غالبا-إلا فى النهار، حيث جعل الليل زمنا للسكون.

وقوله : " ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ.." وذلك لأن اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما يكون فيه مواقيت الليالى والأيام، التى هى مكونات الأشهر والسنين، وفى ذلك ما فيه من المنافع الدينية والدنيوية، فمن المنافع الدينية معرفة مواقيت الحج والصيام وغير ذلك، وأما المنافع الدنيوية فهى معلومة حيث يترتب على ذلك حياة الناس ومعايشهم.

"قيل : كيف يستعمل لفظ "الجعل" هنا مع أن المجعول به ينبغى أن يتحقق قبل الجعل ، مع صفة المجعول كقولك: "جعلت زيداً قائماً" ، فهو قبل ذلك كان متصفاً بضد القيام، وهنا لم يوجد "الجعل" إلا على هذه الصفة ، فكيف يصح استعمال الجعل فيه؟

والجواب أن الليل جواهر قام بها السواد، والنهار جواهر قام بها النور، وكذلك الشمس جسماً قام به الضوء، والأجسام والجواهر متقدمة على الأعراض بالذات، والعرب تراعى مثل هذا".[4]

ومن الآيات القرآنية التى نصت على أن الليل والنهار آية فى الكون من آيات الله تعالى، قوله سبحانه: { وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ. * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ }[5].

---

(١) روح المعانى للألوسى ٢٥/١٥

(٢) البرهان ٢٤١/٣

(٣) روح المعانى ٢٦/١٥

(٤) لبرهان فى علوم القرآن ١٣٤/٤-١٣٥.

(٥) يس ٣٧: ٤٠.

فى هذه الآيات الشريفة يذكر سبحانه آية كونية عظيمة لا يقدر عليها إلا الله الواحد القهار، هى "سلخ الليل والنهار".

والتنكير فى "آية" للتعظيم، أى من الآيات العظيمة على وجود الخالق سبحانه كذا وكذا..." حيث شبه انحسار طبقة النهار البالغة الرقة من ظلمة كل من ليل الأرض وليل السماء بسلخ جلد الذبيحة الرقيق عن كامل بدنها مما يؤكد على أن الظلام هو الأصل فى الكون، وأن النهار ليس إلا ظاهرة نورانية عارضة ورقيقة جداً لا تظهر إلا فى الطبقات الدنيا من الغلاف الغازى للأرض ، وفى نصفها المواجه للشمس فى دورة الأرض حول نفسها أمام ذلك النجم ، وبتلك الدورة ينسلخ النهار تدريجياً من ظلمة كل من ليل الأرض وحلكة السماء كما ينسلخ جلد الذبيحة عن جسدها". [١]

وقوله: "نسلخ.." "سلخ جلد الشاه: إذا قشطه عنها وأزاله، فاستعير لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله، "مظلمون": داخلون فى الظلام، "مستقر لها"، لحد لها مؤقت مقدر"[٢]

"فقد شبه النهار بجلد الشاه ونحوها يغطى ما تحته منها كما يغطى النهار ظلمة الليل فى الصباح، وشبه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد عن نحو الشاه، فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ منه الجلد، وليس الليل بمقصود بالتشبيه، وإنما المقصود تشبيه زوال النهار عنه فاستتبع ذلك أن الليل يبقى شبه الجسم المسلوخ عنه جلده"[٣] أى أن المشبه هو سلخ النهار من الليل، فقد شبهه بسلخ جلد الشاه.

فهناك استعارة تبعية فى الفعل "نسلخ"، حيث شبهت إزالة ضوء النهار عن المكان الذى فيه ظلمة الليل، بإزالة وكشط جلد الشاه، وظهور ما تحته، بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور ما كان خافيا، فيظهر لحم الشاه بعد كشط الجلد، ويظهر الليل بزوال نور النهار، ثم استعير السلخ للإزالة، ثم اشتق من السلخ "نسلخ" بمعنى نزيل على طريق الاستعارة التصريحية التبعية، والقرينة هى إيقاع السلخ على النهار.

ثم شرع فى ذكر آية أخرى من آيات الله تعالى فى الكون لها صلة بالليل والنهار فقال سبحانه: "والشمس تجرى لمستقر لها..." ، والمستقر :مكان الاستقرار، فالسين والتاء فيه للتأكيد.

"واللام فى قوله: "لها" لام الاختصاص، وهو صفة "لمستقر"، وعدل عن إضافة مسقر لضمير الشمس المغنية عن إظهار اللام إلى الإتيان باللام ليتأتى تنكير "مستقر" تنكيرا مشعرا بتعظيم ذلك المستقر".[٤]

وتذييل الآية بقوله: "ذلك تقدير العزيز العليم" حيث اسم الإشارة المشعر بالتعظيم لمافيه من لام البعد، فإن فى صفة "العزيز" تناسب لما يكون من تسخير هذا الكون، وصفة "العليم" تناسب النظام البديع والترتيب المنظم لشئون هذا الكون، وهذا لا يتأتى إلا من العليم ببواطن الأمور.

قوله تعالى: "والقمر قدرناه منازل..." هذه من ضمن آيات الله تعالى فى الكون حيث جعل للقمر نظاما محكما، وهذه المنازل هى مواقع النجوم، ومنازل ظرف مكان منصوب بالفتحة الظاهرة، و"حتى" ابتدائية لأن ما بعدها جملة، أى حتى صار شبيها بالعرجون القديم، والعرجون هو العود الذى تخرجه النخلة فيكون فى نهايته الثمر.

قوله تعالى: " لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ..." يبين الله سبحانه أنه نظم الشمس والقمر نظاما دقيقا يستحيل مع هذا النظام المحكم اتصال إحداهما بالأخرى.

---

(١) مجلة الإعجاز العلمى العدد ٦، ص١٣.

(٢) الكشاف للزمخشرى ١٦/٤

(٣) التحرير والتنوير ١٨/٢٢.

(٤) التحرير والتنوير ٢١/٢٢

"وافتتاح الجملة بحرف النفى "لا"قبل ذكر الفعل المنفى ليكون النفى متقررا فى ذهن السامع أقوى مما لو قيل: الشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر، فكان فى قوله: "لا الشمس..." خصوصيتان."[١].

والغرض من ذلك كله التذكير بآية الليل والنهار وما له ارتباط بهما كالشمس والقمر فإن فى ذلك فوائد جمة للإنسان لا يمكن الاستغناء عنها، لأن بها قوام الكون بكل ما فيه ، والتنوين فى "كل" عوض عن المضاف إليه، والمعنى: "وكلهم"، والضمير للشموس والأقمار"[٢]

"وجئ بضمير "يسبحون" ضمير جمع مع أن المتقدم ذكره شيئان هما الشمس والقمر لأن المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر وجميع الكواكب، وهى حقيقة علمية سبق بها القرآن، وجملة: "كل فى فلك" فيها محسن الطرد والعكس فإنها تقرأ من آخرها كما تقرأ من أولها"[٣] .

وقد ساق القرآن العظيم آية الليل والنهار بجعلها دلائل على الألوهية والوحدانية فى قوله تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }[٤] .

أى من الآيات الكونية الدالة على وجود الله تعالى "الليل والنهار" "والشمس والقمر" لما فى ذلك من العظات والعبر التى سبق تفصيلها سابقا.

ولما كان منظر الشمس، والقمر قد فتن بعض الأمم فعبدته، نهى سبحانه عن عبادتها موضحا أنهما من ضمن مخلوقات الله تعالى فى الكون.

"والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم، فهى لا تليق إلا بمن كان أشرف الموجودات، فقال: "لا تسجدوا للشمس ولا للقمر "لأنهما عبدان مخلوقان،"واسجدوا لله" الخالق الحكيم، والضمير فى "خلقهن" لليل والنهار والقمر لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث، ولما قال: "ومن آياته " كن فى معنى الإناث ، فقال "خلقهن"[٥].

ولما نهى سبحانه عن السجود لهذه المخلوات، أمر بالسجود لله وحده والإخلاص فى العبادة له سبحانه دون غيره فقال: "إن كنتم إياه تعبدون" .

وهكذا كانت تلك النماذج القرآنية تنص على أن الليل والنهار آية من آيات الله تعالى فى الكون، وتناولت الحديث من هذا الجانب وركزت عليه، ورغم أن الغرض متحد وهو كون ذلك آية، فإن طريقة التناول كانت مختلفة من موضع لآخر طبقا للسياق، والمقام، كما شملت الآيات فنونا بلاغية أضفت على التعبير فنا وجمالاً وبهاءً، فامتزجت الحقيقة بالمجاز فى روعة وجمال.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٢٢

(٢) الكشاف ١٨/٤

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/٢٢

(٤) فصلت ٣٧.

(٥) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ١٢٩/٢٧، ١٣٠.

المبحث الثانى

القسم بالليل والنهار فى القرآن الكريم

لما كان لنعمة "الليل والنهار" الأثر العظيم فى الكون، كرمها الله تعالى فى كتابه العزيز بأن أقسم بهذه النعمة فى كثير من الآيات القرآنية الشريفة.

"فالقسم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشئ فى النفس وتقويه، ويأتى فى النظم القرآنى مراعاة للحال والمقام الذى كان عليه وقت نزوله، حيث كانوا فى مواقف متباينة منهم الشاك والمنكر والخصم الألد، فالقسم فى كلام الله تعالى يزيل الشكوك ويحبط الشبهات ويقيم الحجة ويؤكد الأخبار ويقرر الحكم فى أكمل صورة"(١).

والقسم يسترعى الألباب ويثير فى النفس ترقب المقسم عليه، وذلك يستدعى الانتباه، لذا كان من أهم مؤكدات الكلام وقد أقسم الله عز وجل بالليل والنهار فى القرآن العظيم فى مواضع كثيرة من ذلك قوله تعالى: { وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۞ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ.. } (٢)

الحق سبحانه يقسم بالليل إذا ولى، وإذا ظرف زمان مستقبل "والتعبير بالماضى مع إذا التى للمستقبل للتحقيق، ويجوز أن يقال إنها تقلبه مستقبلاً"(٣)

ولما أقسم سبحانه بالليل، ناسب أن يردفه بذكر النهار المعبر عنه بالصبح فى تلك الآية الشريفة فقال سبحانه: "والصبح إذا أسفر" أى أضاء، وطرح الظلام ومحاه.

وانظر كيف جاء القسم بالليل والصبح فى هذا الوقت المحدد بإدبار الليل، وخروج نور الصباح وبداية النهار حيث قيام الناس من نومهم وخروجهم للرزق وسعيهم فى الأرض، فهو وقت له من الأهمية الشئ العظيم عند البشر.

وانظر إلى القسم أيضا فى قوله تعالى : { وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ.. } (٤) . لما كان تعاقب الليل والنهار من أجلّ مظاهر الحكمة الإلهية جمع الله بينهما -أى الليل والنهار- فى كثير من آيات القرآن العظيم، ومنها هذه الآية الشريفة التى يقسم سبحانه بالليل إذا أقبل بظلامه، "وقال المبرد والخليل هو من الأضداد يقال: عسعس إذا أقبل ظلامه، وعسعس إذا أدبر ظلامه، قال ابن عطية: قال المبرد: أقسم الله بإقبال الليل وإدباره معاً"(٥) ، وفى كل الأحوال فإن القسم بأحوال الليل هذه يعد فيه ما فيه من إظهار قدرة الله تعالى وتعظيم المقسم به.

ثم عطف على ذلك قوله تعالى: "والصبح إذا تنفس"، وهو قسم آخر بالصبح إذا ظهر ضوؤه وانشق، وذلك مناسب لذكر الليل، ولكون ظهور الصباح من مظاهر الكون البديعة، ومن عجائب قدرته سبحانه.

"والتنفس: حقيقته خروج النفس من الحيوان، استعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النفس، على طريقة الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذى نفس مع تشبيه النسيم بالأنفاس"(٦) .

---

(١) من أسرار التوكيد فى نظم القرآن الكريم ٢٦٦

(٢) سورة المدثر ٣٣، ٣٥

(٣) روح المعانى ١٦٣/١٥.

(٤) التكوير ١٧، ١٨

(٥) التحرير والتنوير ١٥٤/٣٠

(٦) التحرير والتنوير ١٥٤/٣٠.

فكأنه سبحانه قال: أقسم بالليل فى هذا الوقت منه إذا عسعس، وأقسم بالنهار فى هذا الوقت منه إذا تنفس.

فالكلام مبنى على الاستعارة التبعية فى الفعل باعتبار حدثه، فقد شبه هبوب نسيم الصباح بالتنفس الذى له تأثير فى القلب فيسبب الراحة للإنسان، ثم استعار التنفس لهبوب نسيم الصباح، ثم اشتق منه الفعل الماضى "تنفس"، وذلك على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، ومعلوم أن الفعل يفيد المعنى الذى اشتق منه مع دلالته على الزمان بصيغته.

والواقع أننا نستعير اللفظ، أما استعارة المصدر واشتقاق الفعل منه فأمر تقديرى لبيان أن استعارة المشتق تابعة للمصدر فقط"[١] .

ومن القسم أيضا بالليل فى القرآن العظيم، قوله تعالى: " وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ*وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ*لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ"[٢] .

أقسم سبحانه بالليل وما جمع وضم بعد أن كان قد أقسم فى الآية السابقة بالشفق، وهو وقت غروب الشمس، ودخول الليل .

" وما " فى قوله: "وما وسق" تحتمل المصدرية والموصولة، والجمهور على الثانى، والعائد محذوف، أى والذى وسقه، والمراد به ما يجتمع بالليل، وما يكون فيه من خير أو شر"[٣] ، وقوله: "والقمر إذا اتسق" أى اكتمل نوره واجتمع ضياؤه، ويكون ذلك فى ليلة البدر .

وانظر كيف أقسم سبحانه بهذه الأمور الجليلة وجمع فيها بين الظلمة والضياء لأن ذلك من مظاهر نعمة الله تعالى على الإنسان ولذلك استحقت أن يقسم بها المولى تبارك وتعالى .

ومن القسم بالليل والنهار أيضا قوله تعالى : { وَالْفَجْرِ*وَلَيَالٍ عَشْرٍ*وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ*هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ*أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ }[٤] .

حيث افتتحت السورة الشريفة بهذا القسم الذى يسترعى الألباب لترقب المقسم عليه، وقد أقسم سبحانه بهذا الوقت وهو بداية النهار، ووقت انتهاء الليل لأن الناس فى هذا الوقت يقومون للعمل والسعى للرزق، ثم تبعه بالقسم بالليل فقال سبحانه: "والليل إذا يسر" أى يذهب وينقضى، وقيل: "وقت أن يسرى فيه السارون بعد أن أخذوا حظهم من النوم"[٥] .

" ومناسبة عطف (ليال عشر) على الفجر أنه سبحانه لما ذكر الفجر وهو بداية النهار ووقت انتهاء الليل ناسب ذكر الليل للتضاد، وأتبع ذلك بالقسم للشفع والوتر.... وهذين اليومين المذكورين هما يوم النحر ويوم عرفة، وذلك لشرفهما ومكانتهما العظيمة وخصهما بالذكر للاهتمام"[٦] .

وحذفت الياء من "يسر" اكتفاء بالكسرة عنها، وهذا شائع معروف فى كلام العرب للتخفيف، ولرعاية الفاصلة حتى تتوافق رءوس الآى ، "و"إذا" ظرف محض وليس متضمنا معنى الشرط"[٧] .

وانظر إلى المجاز العقلى فى إسناد الفعل إلى زمنه فى قوله تعالى: "والليل إذا يسر" حيث أسند السرى إلى الليل.

---

(١) نظرات فى البيان د/محمد عبد الرحمن الكردى ٢١٥

(٢) الانشقاق ١٧، ١٨، ١٩.

(٣) روح المعانى ١٠٤/٣٠.

(٤) الفجر ١: ٦.

(٥) ينظر التفسير الكبير ومفاتيح الغيب ١٦٥/١٦

(٦) من بلاغة القرآن الكريم فى سورة الفجر للدكتور محمد الطاهر ١٢-١٣.

(٧) ينظر البرهان ١٩٥/٤

"وقد يكون فى الآية استعارة، حيث جعل لليل إسراء فشبه بما يعقل، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو السرى، على طريق الاستعارة بالكناية، وفى هذا ما فيه من براعة التصوير، ودقة التجسيم، وحسن التخييل، فجعل الليل مخلوق حى يسرى، ففى ذلك روعة فى الإبداع لا تدانى"(١) .

إذا الحق سبحانه أقسم بالليل، وتبله أقسم بالفجر وهو أول النهار، وكل ذلك فيه ما فيه من الدلائل على أهمية الليل والنهار لبنى الإنسان وتأثيرهما فيه، وتأثره بهما.

ومن القسم بالليل والنهار في القرآن العظيم قوله تعالى: { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا..... ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۞ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا..... }(٢)

يقسم الله عز وجل فى تلك الآيات بتلك الأشياء العظيمة التى خلقها سبحانه، فيبدأ السورة بالقسم بالشمس التى سميت السورة باسمها تكريما وإجلالا لتلك النعمة، فمن المعلوم أن الحق سبحانه لا يقسم إلا بأفضل الأشياء وأكرمها.

فيقسم بالشمس وضوئها، ثم يقسم بالقمر "إذا استدار فتلاها فى الضياء والنور"(٣) . وذلك يكون ليلة البدر، لأنه آنذاك يكون أكثر ضياء على الإطلاق .

وقوله تعالى: { والنهار إذا جلاها } أى "جلى النهار الشمس أى أظهرها فإنها تتجلى وتظهر إذا انبسط النهار ومضى منه مدة، فالإسناد مجازى كالإسناد فى صام نهاره، وقيل الضمير المنصوب يعود على الأرض وقيل على الدنيا والمراد بها وجه الأرض وما عليه، وقيل يعود على الظلمة وجلاها حينئذ بمعنى أزالها والأول أولى"(٤) .

" أى أن النهار هو الذى يجعل الشمس واضحة جلية لأحاسيس المشاهدين لها من سكان الأرض، وهذه لمحة من لمحات الإعجاز العلمى فى كتاب الله تعالى، تقرر أن نور الشمس لا يرى إلا فى نهار الأرض ، وأن الكون خارج نطاق نهار الأرض ظلام دامس، وأن هذا النطاق النهارى لابد وأن فيه من الصفات ما يعينه على إظهار وتجلية ضوء الشمس للذين يشهدونه من أحياء الأرض"(٥) .

- والواوات الواقعة بعد الفواصل واوات قسم، فالله عز وجل يقسم بالشمس ويقسم بالقمر، ويقسم بالنهار، ثم يقسم بالليل.

"وأعقب القسم بالنهار بالقسم بالليل لأن الليل مقابل وقت النهار فهو وقت الإظلام، وإسناد الغشى إلى الليل مجاز عقلى من إسناد الفعل إلى زمنه أو إلى مسببه، "وإذا يغشاها " فى محل نصب على الظرفية متعلقة بكون هو حال من القمر ومن النهار ومن الليل، فهو ظرف مستقر، أى مقسما بكل واحد من هذه الثلاثة فى الحالة الدالة على أعظم أحواله وأشدها دلاله على عظيم صنع الله تعالى"(٦) . فقد أقسم سبحانه بهذه الأشياء العظيمة، وجاء نظم الآيات متسقا مع السياق ومقتضى الحال.

ومن القسم بالليل والنهار أيضا قوله تعالى : { والليل إذا يغشى ۞ والنهار إذا تجلى ۞ وما خلق الذكر والأنثى ۞ إن سعيكم لشتى }(٧)

---

(١) من بلاغة القرآن الكريم فى سورة الفجر د/محمد محمد الطاهر ١٥

(٢) الشمس ١: ١١.

(٣) الكشاف ٧٥٨/٤.

(٤) روح المعانى ١٨٠/١٥

(٥) مجلة الإعجاز العلمى-رابطة العالم الإسلامى-العدد ٦ ص ١٣

(٦) التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠

(٧) الليل ١: ٤.

هذه سورة أخرى من سور القرآن العظيم تسمى "الليل" بعد السورة السابقة التى سميت "الشمس" التى هى سبب وجود النهار، وقوله "يغشى" أى يوارى بظلامه، وقوله "تجلى" أى ظهر ووضح.

ولا تخفى المقابلة الموجودة فى "الليل والنهار" و "يغشى وتجلى"، والأول بين اسمين والثانى بين فعلين. كما لا يخفى المحسن البديعى وهو رعاية الفاصلة، وكل ذلك من شأنه أن يضيف إلى الكلام بهاء ورونقا ويكسبه جمالاً ولطفا.

وكما سبق أن ذكرت أن فى القسم بالليل والنهار فيه ما فيه من الاستدلال على حكمة نظام الله تعالى فى هذا الكون، وقدرته عز وجل فى تدبير شئون المخلوقين بأن جعل لهم نعما جليلة وسخرها لهم، ومن أفضل وأبرز تلك النعم "الليل والنهار" ، ومعنى "تجلى" وضح وظهر ضياؤه.

وأيضا من الآيات القرآنية الشريفة التى أقسم فيها سبحانه بالليل والنهار قوله تعالى: "والضحى*والليل إذا سجى*ما ودعك ربك وما قلى"[1] .

هذه هى السورة الثالثة المتتالية حسب الترتيب المصحفى التى يقسم فيها سبحانه بالليل والنهار بعد الشمس والليل.

وهنا يقسم سبحانه بالضحى وهو "وقت الضحى، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها، وقيل : إنما خص وقت الضحى بالقسم؛ لأنها الساعة التى كلم فيها موسى عليه السلام، وألقى فيها السحرة سجدا"[2] .

ثم أتبع القسم بهذا الوقت وهو بداية النهار بالقسم بالليل، ومعنى سجى: سكن، والمراد سكون ما فى الكون فى هذا الوقت حيث الظلام، وقد جعله الله سبحانه سكنا أى يسكن فيه.

ولا يخفى أنه سبحانه لما أقسم بالضحى وهو وقت اشتداد ضوء الشمس ناسب القسم بالليل فى وقت مضاد للسابق، وهو وقت السكون والهدوء، واشتداد الظلام.

وفى اختيار هذين الوقتين للقسم بهما ما يدل على شرف المقسم به وأيضا لأن فى كلا الوقتين منافع للعباد، فالضحى هو وقت للعمل والسعى فى الأرض للرزق، والوقت الثانى لراحة البدن من العناء وللسكون والهدوء حتى تستمر الحياة. هذا مع ما لا يخفى من إظهار قدرة الله تعالى فى الجمع بين المتضادات والمتناقضات فى خلقه، بما لا يستطيع فعله سواه سبحانه .

وبعد :

فإن المتأمل للقسم بالليل والنهار فى القرآن العظيم يجد تنوعاً فى طريقة التناول، فتارة يقدم القسم بالليل على النهار، وتارة العكس، وتارة يعبر بالحقيقة، وتارة بالمجاز، كما أن توابع القسم من شرط وعطف وغيره لا يسير على وتيرة واحدة، فتارة يقول: "والليل إذا يسر" ، وتارة: "والليل إذا عسعس"، وتارة "والليل إذا يغشى... وهكذا، وفى النهار تارة يقسم بأول النهار مثل قوله تعالى: "والفجر" ، وتارة يقسم بالضحى، وتارة بالنهار إذا تجلى....وهكذا.

وهذا التنوع بجانب كونه مرتبطا بالسياق ومقتضى الحال، فإنه يفيد فى تنشيط الذهن، وإثارة السامع، والتشويق والاهتمام لعدم جريان الكلام على وتيرة واحدة.

والله عز وجل يقسم بعظيم مخلوقاته، وبديع ما فى الكون لفتا للأنظار إلى ما للمقسم به من عظمة ومنافع للعباد، وهذا كله متحقق فى الليل والنهار.

"والله أعلم"

---

(١) الضحى ١، ٣.

(٢) الكشاف ٤/٧٦٥

المبحث الثالث

فوائد الليل والنهار للإنسان

جاءت آيات قرآنية فيها ذكر فوائد الليل والنهار للإنسان، امتنانا من الله سبحانه وتعالى على خلقه بأن أنعم عليهم بهذه الفوائد المترتبة على نعمة الليل والنهار.

وفى ذكر هذه الفوائد إيقاظ للسامعين من غفلتهم، حتى يؤدوا شكر هذه النعم، ويستغلونها فى إرضاء المنعم سبحانه ومن تلك الآيات الشريفة قوله تعالى: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ }[١].

الله عز وجل يمن على الإنسان بنعمة الليل والنهار تلك النعمة الشاهدة على قدرته سبحانه وتعالى وعظيم فضله، وواسع عطائه، فالنهار نعمة حيث ينتشر فيه النور فيناسب المشاهدة، وذلك لاحتياج الناس إلى هذا الضياء القوى لممارسة حركاتهم وأعمالهم.

ونعمة الليل شاهدة على الخالق العظيم سبحانه، حيث الظلمة المناسبة للسكون، وذلك لاحتياج الناس فيه إلى الراحة من تعب وعناء العمل نهاراً، فكانت تلك الظلمة الباعثة على الهدوء والسكينة خير ما يعين الناس على النوم والراحة فى هذا الوقت.

"ولما قابل السكون فى جانب الليل بالإبصار فى جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار، وأن الإبصار يقتضى الحركة، فكان فى الكلام احتباك"[٢].

ولا يخفى أن فى إسناد الإبصار إلى النهار مجازا عقلياً علاقته الزمانية حيث إن النهار مبصراً فيه فهو زمان الإبصار، ومن الممكن جعله سببا للإبصار، فتكون العلاقة "السببية".

"وفى قوله تعالى: "هو الذى جعل لكم...." طريق من طرق القصر وهو تعريف المسند والمسند إليه، وهو هنا قصر حقيقى، فالمقصود الاستدلال على انفراده تعالى بخصائص الإلهية التى منها الخلق والتقدير، وقد حصل مع الاستدلال امتنان على الناس بجعل الليل والنهار على هذا النظام"[٣].

"نعم، فإن قوله تعالى: "والنهار مبصراً، مجاز عقلى فيه مبالغة، ولذلك عدل به عن التعليل إلى الحال، ولما جعل نفس النهار مبصراً فهم أن النهار لكمال سببية الإبصار وكثرة القوة الباصرة فيه جعل كأنه هو المبصر، وأن فعل الفاعل الحقيقى إذا أسند إلى وقته مثلاً أن يقال: صام نهاره أو نهاره صائم، يفهم أنه لكثرة صومه فى النهار. وقوة ملازمته للصوم فيه صح أن يوصف نهاره بكونه صائماً، وكذا الإبصار"[٤].

وقد قدم الليل على النهار فى الآية الشريفة مع أن النهار أشرف من الليل، ونفعه أكثر لأن الظلمة عدم، والنور وجود، والعدم فى المحدثات مقدم على الوجود.

وفى تقديم الجار والمجرور "لكم" على المفعول إشعار بأهمية ذلك المقدم حيث إن المقصود هو الامتنان بهذه النعمة، وجعل الليل وقتا للسكن والراحة، والنهار وقتا للعمل وابتغاء الرزق وقضاء المصالح.

---

(١) يونس ٦٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٢٧/١٠.

(٣) التحرير والتنوير ٢٢٧/١٠.

(٤) حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوى ٢٤٢/٤.

ويقول النسفى –رحمه الله– "وقرن الليل بالمفعول له، والنهار بالحال، ولم يكونا حالين أو مفعولاً لهما رعاية لحق المقابلة، لأنهما متقابلان معنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر؛ ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى، ولو قيل: ساكنا لم تتميز الحقيقة من المجاز إذ الليل يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: "ليل ساج" أى ساكن لا ريح فيه"[١].

وفى ختام الآية جاء سبحانه بحرف التوكيد "إن" لتقرير هذه الحقيقة وهى كالنتيجة لما تقدم، وانظر إلى التنكير فى "آيات" حيث إن المراد منه هو "التعظيم"، وأن الليل والنهار وما يتبع ذلك من نعم فيه ما فيه من الآيات العظيمة التى منّ الله سبحانه وتعالى على عباده بأن وهبهم إياها وخصهم بها للانتفاع والشكر على تلك النعم، فإن كل الناس يعلمون ما فى سكون الليل من نعمة وما فى إبصارهم من نعمة.

كما أن فى ذلك ما فيه من تعريض بالذين لم يشكروا هذه النعم، ولم يقدروها قدرها بكفران تلك النعم ومخالفتهم الحق بالبعد عن الصواب، ووصمهم بأنهم صم لا يسمعون.

وجمع "آيات" يدل على ما يندرج تحت تلك النعم من دلائل واضحات دامغات على وجود الخالق سبحانه الذى منَّ على عباده بتلك النعم، ومثل هذه الآية فى الامتنان بنعمة الليل والنهار قوله تعالى: { اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ }[٢].

وأيضاً مثل ذلك قوله تعالى: { أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }[٣].

وانظر إلى قوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً }[٤]. هذه الآية الشريفة بدأت بالقصر، أى أن هذه النعمة هى منه سبحانه لا يشاركه فيها غيره، وطريق القصر تعريف الطرفين.

"ولكم" متعلق "بجعل" أى من جملة ما خلق له الليل أن يكون لباسا لكم، وهذا لا يقتضى أن الليل خلق لذلك فقط، ولباسًا مشبه به على طريقة التشبيه البليغ أى ساتراً لكم يستر بعضكم عن بعض، وفى هذا الستر منن كثيرة لقضاء الحوائج التى يجب إخفاؤها[٥] .

ففى الآية تذكير بنعمة الله تعالى المتمثلة فى اختلاف الليل والنهار" لما فى ذلك من فوائد جمة، حيث الليل وما فيه من سكون يكون معه الهدوء ، وفيه الستر والخفاء لما يكره أن يطلع عليه الغير، وجعل النوم فيه راحة، وهذا امتنان منه سبحانه بتلك النعمة التى تندرج تحتها نعم شتى.

والنهار وما فيه من انتشار الناس فى الأرض وقضاء مصالحهم حيث نور الشمس، ودفء الجو والعوامل المساعدة على العمل والنشاط وكل ذلك منة وفضلا منه سبحانه.

ومن الآيات القرآنية الشريفة التى ذكرت الليل والنهار من حيث كونها نعمة ومنة منه سبحانه، قول الله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ• قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ•وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ "[٦] .

---

(١) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ص٩٠، وانظر الكشاف ٣٧٦/٣.

(٢) غافر ٦١.

(٣) النمل ٨٦.

(٤) الفرقان ٤٧.

(٥) التحرير والتنوير ٤٥/١٩

(٦) القصص ٧١: ٧٣

الاستفهام فى (أرأيتم) للتقرير "وإذا دخلت الهمزة على (رأيت) امتنع أن تكون من رؤية البصر أو القلب وصارت بمعنى(أخبرنى)"[١] . كما أن الاستفهام فى قوله تعالى "أفلا تسمعون، أفلا تبصرون" للتوبيخ .

هذه الآيات الشريفة جاءت فى سياق الامتنان بنعم الله تعالى على خلقه، والتهديد يسلب تلك النعم، ولفت الأنظار لما فى الليل والنهار من فوائد للبشر، تلك الفوائد ما كانت لتكون لولا رحمته سبحانه بخلقه، ونعمة الليل والنهار من أجلّ النعم وأوضحها، حيث يدركها كل مميز، فالله عز وجل خالق الضدين "الليل والنهار" وهذا التنقل كل يوم من ليل إلى نهار ومن ظلام إلى نور، ومن سكون إلى انتشار لهو أقوى دليل على قدرته سبحانه، وعلى منه وفضله وعظيم رحمته

وقوله تعالى " أرأيتم" جئ بهذا الفعل بمعنى أخبرونى، لأن ما بعدها جملة شرط، ولا يكون الشرط فى هذه الحالة إلا ماضيا كما هو الحال فى الآية الشريفة، لأن ما بعده ليس بجواب له، وإنما هو متعلق بأرأيتم

"وجئ فى الشرطية بحرف "إن" لأن الشرط مفروض فرضا مخالفا للواقع، والاستفهام فى "أرأيتم" "تقريرى، والاستفهام فى "من إله غير الله" إنكارى[٢] .

والسرمد هو الشئ الدائم بلا انقطاع ، والرؤية هنا قلبية ، ومعنى "يأتيكم" أى يجعل لكم ويوجد ما تم نزعه منكم .

"وفى تعديه فعل يأتيكم" فى الموضعين إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أن إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس، وكرر الأمر بالقول فى مقام التقرير لأن التقرير يناسب التكرير"[٣] .

وانظر إلى قوله تعالى: "تسكنون فيه" حيث إن نعمة الليل يندرج تحتها نعم كثيرة، منها نعمة السكون فإنه مناسب للراحة ، وختمت الآية الأولى بقوله: "أفلا تسمعون" لأن الليل إذا كان سرمدا فإن الرؤية منعدمة آنذاك، ولذلك جئ فى جانب فرض دوام الليل بالإنكار على عدم سماعهم، أما النهار فلما كان الإبصار فيه أمرا واقعا ختمت الآية بقوله: "أفلا تبصرون" وهو تذييل.

وما فى الآيتين يعد من "تشابه الأطراف" عند الخطيب[٤]، فتجد أن الختام يكون بمثابة الجملة التعليلية، أو الدليل الساطع والبرهان القاطع على وجود المعنى السابق، فيأتى الختام يحق الحق، وفواصل القرآن العظيم من هذا القبيل، ومنها هذه الفاصلة التى وردت فى الآيتين الشريفتين.

قوله تعالى: "ومن رحمته جعل لكم الليل..." هذا تصريح بنعمة تعاقب الليل والنهار، وما ينتج عن هذا التعاقب من منن ومنح منه سبحانه لعبيده، وانظر إلى "من" التى هى للتبعيض حيث إن ذلك من جملة نعم الله تعالى، وبعضا من فضله عز وجل، وتقديم "من رحمته" على الفعل "جعل" للاهتمام وفيه لفت للأنظار أن ذلك كله فضل وتكرم من الحق سبحانه على الخلق.

"وقد سلك فى قوله: "لتسكنوا فيه وليبتغوا من فضله" طريق اللف والنشر المعكوس، فيعود "لتسكنوا فيه" إلى الليل ، ويعود "ولتبتغوا من فضله" إلى النهار، والابتغاء من فضل الله تعالى كناية عن العمل والطلب لتحصيل الرزق"[٥] ، وختمت الآية الشريفة بقوله: "ولعلكم تشكرون"، للتنبيه على أن هذه النعمة وتلك الرحمة تستلزم الشكر للمنعم سبحانه وإفراده بالعبودية.

---

(١) البرهان ١٧٨/٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٦٩/٢٠

(٣) السابق ١٧٠/٢٠

(٤) ينظر: البديع بين النظرية والتطبيق د/ العادلى محمد أحمد سليمان، ١٠٨، ١٠٩.

(٥) التحرير والتنوير ١٧١/٢٠

والسر فى تقديم الليل على النهار فى هذه الآيات الشريفة "أن نسخ الليل بالنير الأعظم أبلغ فى المنافع بما ضمن من المصالح من نسخ النهار بالليل، ألا ترى أن الجنة نهارها دائم لا ليل معه لأن الليل فى دار التكليف للاستراحة والاستعانة بالجمام.... ودار النعيم يستغنى فيها عن ذلك، فتقديم ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذى يمكن من التصرف فى المعايش والسعى فى المصالح إلى ما لا يحصى من المنافع المتعلقة بالشمس فكان تقديمه أحق وأولى"(١).

ومن الآيات القرآنية التى تحدثت عن الليل والنهار من حيث كونهما نعمة وما بها من فوائد للبشر قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ۞ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً }(٢)

" لفظ جعل هنا بمعنى النقل من حال إلى حال والتبصير، فيتعدى إلى مفعولين، لأنه يتعلق بشيئين: المنقول وهو الليل، والمنقول إليه وهو اللباس"(٣) .

ولباساً أى ساترا كما يستر اللباس لابسه، فإن الليل من جملة نعمه أنه ساتر لما لا يحب الإنسان اطلاع الآخرين عليه، فهو كاللباس للمرء يستر عورته وهذا امتنان منه سبحانه بهذه النعمة.

وقوله "معاشا" مصدر ميمى بمعنى العيش، أى وقت معاش، وسعى فى الأرض لابتغاء الرزق، ، وفى الآيتين مقابلة بين الليل والنهار ولباسا ومعاشا.

واختار سبحانه صفة "المعاش" للنهار لأنها أظهر وأوضح ما فيه أنه معاش للناس، وفيه حياة للناس، ويقظة وعملاً وسعيا، وفى هذا التعبير مجاز عقلى علاقته السببية حيث إن النهار سبب للعمل الذى هو سبب للعيش.

وهكذا تجد القرآن العظيم فى حديثه عن الليل والنهار من هذا الجانب أى كون ذلك نعمة وفضلا فيه ما فيه من الفوائد الجمة للخلق، ينتقل فى هذه النعمة وبينها موصفا إياها بأوصاف عديدة فتارة يذكر صفة النوم ملازما لليل، وتارة نعمة السبات والراحة، ومرة يذكرنا بأنه سكن وهدوء، وكذلك النهار فهو معاش للناس، وهو ضياء ونور فيه النشاط والعمل وابتغاء الرزق، وفيه نعمة الإبصار، وكل ذلك من عظيم فضله تعالى على خلقه.

وتجد الآيات الشريفة تارة تعبر بالمجاز وتارة تعبر بالحقيقة، كما تجد فيها من المحسنات البديعية ما يضفى عليها جمالاً ورونقا.

---

(١) بردة التنزيل وغرة التأويل، ٢٤٨.

(٢) النبأ ١٠، ١١

(٣) البرهان ١٣٠/٤

المبحث الرابع

الليل والنهار زمن للطاعة والعبادة

خلق الله عز وجل الإنسان، وحدد له أجلاً لا يتجاوزه، وأجل الإنسان يتكون من الأيام والليالى، الذى يحدده الليل والنهار .ومن هذا المنطلق فإن عمر الإنسان يقاس بالليل والنهار فهما زمنان للعبادة والتقرب إلى الله تعالى.

وكتاب الله تعالى جاء فيه ذكر الليل والنهار كزمن للعبادة والتزود بالطاعة فى آيات كثيرة، فقد ورد ذكرها على سبيل الدوام والاستمرار لأنهما يكونان الأيام والليالى، قال تعالى فى وصف الملائكة –عليهم السلام– { وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ }[١] فالمراد أنهم فى عبادة دائمة وتسبيح مستمر وجاء فى القرآن العظيم وصف الملائكة أيضاً بالدوام والاستمرار مسبحين فى قوله تعالى: (فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ)[٢].

وانظر إلى التعبير القرآنى حيث جاء" عند ربك" ظرف أريد به التشريف والمكانة العليا والمقام الرفيع لهؤلاء المقربين.

كما ورد أيضا ذكر الليل والنهار والمراد بهما الدوام والاستمرار فى وصف عباد الله المنفقين لأموالهم ابتغاء مرضات الله تعالى ، يقول سبحانه وتعالى: { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ }[٣].

وقد جعل الله عز وجل الليل والنهار بما بينهما من اختلاف، فهذا ظلام وذاك نور، وهذا حر وذاك برد فما يكون بعضه أليف ببعض الناس من بعض، فهذا يحب العبادة نهاراً، وذاك يفضل التهجد والتقرب إلى الله ليلا، فجاء هذا الاختلاف ليلائم الطباع والأمزجة المختلفة للعباد.

قال سبحانه: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً }[٤] بدأت الآية الشريفة بأسلوب القصر ، وطريقه "تعريف الطرفين" وهو قصر حقيقى لاختصاص الحق سبحانه وتعالى به دون غيره و "خلفة" اسم على وزن "فعلة" والمعنى يخلف أحدهما الآخر فالليل يعقبه النهار والعكس صحيح.

وانظر إلى لام التعليل فى قوله: " لمن أراد" فإن هذا الاختلاف بين الليل والنهار والتعاقب بينهما نافع ومفيد لمن كانت عنده العزيمة والإرادة فى التقرب إلى الله تعالى بالذكر والعبادة والشكر والطاعة،

فمن فاته الشكر لله تعالى والتقرب إليه سبحانه نهارا بسبب عمله مثلا، فإن فى الليل استدراك لذلك، ومن غلبه النوم ليلا فإن فى صيام النهار، وصلواته من ضحى وسنن بجانب الفريضة خير عوض عن ذلك.

"وقد روى عن عمر بن الخطاب –رضى الله عنه– أنه أطال صلاة الضحى يوما فقيل له: صنعت شيئا لم تكن تصنعه؟ فقال: إنه بقى علىّ من وردى شئ فأحببت أن أقضيه، وتلا قوله تعالى: "وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة...."[٥].

---

(١) الأنبياء: ١٩: ٢٠.

(٢) فصلت: ٣٨

(٣) البقرة: ٢٧٤

(٤) الفرقان: ٦٢

(٥) التحرير والتنوير ٦٦/١٩.

"وجئ فى جانب المتذكرين بقوله: "أن يذكر" لدلالة المضارع على التجدد، واقتصر فى جانب الشاكرين على المصدر بقوله: "أو أراد شكورا" لأن الشكر يحصل دفعة، ولأجل الاختلاف بين النظمين أعيد فعل "أراد" إذ لا يلتئم عطف "شكورا" على "أن يتذكر"[(١)].

وقد امتدح الله عز وجل الساهرين فى عبادته ليلاً فقال سبحانه: "أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب } [(٢)].

من: اسم مبتدأ مبنى فى محل رفع، وخبره محذوف، والتقدير: "أمن هو قانت.... كغيره"، ودخلت "أم"، وحذف الخبر لدلالة الكلام والسياق عليه.

والقانت: هو الطائع لربه الذاكر العابد، وقوله: "ساجدا" حال وقائما معطوف عليه ، "وقرئ: ساجدٌ وقائمٌ، على أنه خبر، والواو للجمع بين الصفتين، وقيل نزلت فى عمار بن ياسر -رضى الله عنه-، وأبى حذيفة بن المغيرة المخزومى"[(٣)].

وقوله تعالى: "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" فيه تعريض، حيث استعملت إنما للتعريض بمن لا يعتبر بما ساقته الآية الشريفة من حض على العبادة وحث على التهجد لله تعالى، وهذا من أفضل مواقع إنما.

وأيضاً فى الآية الشريفة مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث عبر بالجزء فى قوله: "ساجدا، وقائما" وأراد الكل وهو الصلاة والتهجد والعبادة والدعاء.... الخ الطاعات والقربات.

وأيضاً ورد فى القرآن العظيم الثناء على المؤمنين، وجاء من أوصافهم الحسنة قوله تعالى: { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً }.

فهذا من جملة صفات المؤمنين، تلك الصفات التى ساقتها الآيات الشريفة وذلك حثا على الامتثال والاقتداء بتلك الصفات الحميدة التى تقرب العبد من ربه، وتجعله متصلا بخالقه جل وعلا .

"وإعادة الموصول لتأكيد أنهم يعرفون بهذه الصلة، والظاهر أن هذه الموصولات وصلاتها كلها أخبار أو أوصاف لعباد الرحمن، وروى عن الحسن البصرى أنه كان إذا قرأ "الذين يمشون على الأرض هونا" قال: هذا وصف نهارهم، ثم إذا قرأ "والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما" قال: وهذا وصف ليلهم[(٤)].

وانظر إلى قوله تعالى: "سجدا وقياما" فإنه فى تقديم السجود اهتماما به، فإن أقرب ما يكون العبد الى ربه وهو ساجد، كما أن فيه رعاية الفاصلة.

نعم:

فإن عباد الله المؤمنين موصوفون بهذه الصفة العظيمة وهى كثرة التهجد ليلاً كما وصفهم سبحانه فى آية أخرى بقوله تعالى: " تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ "[(٥)].

وانظر الى المضارع "تتجافى" وما يدل عليه من التكرار والتجدد، وهو حال من الموصول فى الآية السابقة، فهم موصوفون بصفة ترك المضاجع وهى أماكن النوم وذلك لغرض أسمى وأجل وهو التقرب إلى الله تعالى، وفى الآية أيضا تعريض بالذين يقضون الليل فى العبث والذين يقضونه فى النوم لاهين غير عابئين، وغير مقتدين بالصالحين .

وقوله: "خوفا وطمعا" حالان، ويجوز كونهما مفعولان لأجله.

---

(١) السابق ٦٦/١٩.

(٢) الزمر٩.

(٣) الكشاف ١١٧/٤

(٤) التحرير والتنوير ٧٠/١٩.

(٥) السجدة ١٦

كما جاء فى القرآن العظيم وصف أهل الجنة بقوله تعالى: " "كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ }[١] ، "وفيه مبالغات لفظ "الهجوع"، وهو الفرار من النوم، وقوله "قليلا" و "من الليل" لأن الليل وقت السبات والراحة وزيادة "ما" المؤكدة لذلك وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين"[٢] ، و"قليلا" منصوب على الظرفية والمعنى: ينامون قليلاً، وخبر كان قوله تعالى "يهجعون".

وإذا انتقلنا إلى حديث القرآن العظيم عن قيام النبى ﷺ وسلم ليلاً وتسبيحه وعبادته لله تعالى نهارا، فنجد آيات كثيرة منها قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً* نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً* إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً* إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً* إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً }[٣]. الخطاب والنداء لسيدنا رسول الله ﷺ وهو المتزمل في ثيابه أى الملفوف بها.

"نصفه" بدل من الليل، و"إلا قليلا" استثناء من النصف، كأنه قال: قم أقل من نصف الليل، والضمير فى "منه" و "عليه" للنصف، وقوله تعالى: "إنا سنلقى عليك قولا ثقيلاً" اعتراض ويعنى بالقول الثقيل: القرآن وما فيه من الأوامر والنواهى، وقوله: "إن ناشئة الليل" أى النفس الناشئة، التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة، والناشئة مصدر من نشأ إذا قام ونهض"[٤].

" وهذه الجملة المؤكدة معترضة بين الأمر بالقيام وتعليله الآتى لتسهيل ما كلفه صلى الله عليه وسلم من القيام، كأنه قيل: إنه سيرد عليك فى الوحى المنزل تكاليف شاقة هذا بالنسبة إليها سهل فلا تبالى بهذه المشقة وتمرن بها لما بعدها"[٥].

فالنبى صلى الله عليه وسلم ناداه ربه جل وعلا وأمره بقيام بعض الليل وانظر الى التعبير القرآنى الشريف: "إن لك فى النهار سبحا طويلاً" أى شواغل ومهام من بناء الدولة الإسلامية، ونصح وإرشاد للمؤمنين، وصلح بين المتخاصمين.... الخ، فكان ﷺ وسلم يفرغ من ذلك ليلاً، فأمر بالتهجد والقيام فيه.

"وأمر الرسول –ﷺ– بقيام الليل أمر إيجاب وهو خاص به لأن الخطاب موجه إليه وحده مثل السور التى سبقت هذه السورة، وأما قيام الليل للمسلمين فهم اقتدوا فيه بالرسول ﷺ "[٦].

وانظر إلى النداء فى قوله تعالى: "يا أيها المزمل" فإن فيه تلطف، وفيه اعتبار لحالته صلى الله عليه وسلم وقت ندائه، فإن الأصل فى النداء أن يكون بالعلمية إذا كان المنادى معروفا عند المتكلم، فلا يعدل عن العلمية الى غيرها إلا لغرض بلاغى كما هو الحال فى هذه السورة الشريفة.

"فإذا نودى المنادى بوصف هيئته من لبسة أو جلسة أو ضجعة كان المقصود فى الغالب التلطف به والتعجب إليه ولهيئته"[٧].

وهناك آيات كثيرة أمر الله سبحانه النبى ﷺ بقيام الليل فيها، فمن هذه الآيات قوله تعالى: "ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا"[٨].

---

(١) الذاريات ١٧

(٢) الكشاف ٢٩٨/٤، ٢٩٩.

(٣) المزمل ١ : ٧.

(٤) الكشاف ٦٣٧/٤، ٦٣٨.

(٥) روح المعانى ١٣٠/١٢٩.

(٦) التحرير والتنوير ٢٥٨/٢٩.

(٧) من أسرار النداء فى القرآن الكريم د/ بغدادى الصحابى ٧١.

(٨) الإسراء ٧٩.

"والضمير المجرور فى "به" للقرآن، والباء للظرفية أى فتهجد فى ذلك البعض، و"نافلة لك" فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة، خاصة بك دون الأمة"[1].

وهكذا كان تناول القرآن العظيم لليل والنهار بهذا الاعتبار وهو أنهما زمنان للعبادة والتقرب والطاعة لله تعالى، تناولا فيه حث وتحضيض للهمم والعزيمة، وجاء هذا التناول متوافقا مع السياق، ومقتضيات الأحوال، ووجدنا فيه مزجا بين الرغبة والرهبة، وبين الثواب والعقاب، وجاء بعضه فى ثوب الحقيقة الكلامية، وجاء البعض الآخر فى ثوب المجاز، فكان فى ذلك التعبير بأفصح العبارات، وأقومها وأقواها، فسبحان من هذا كلامه، وتلك عباراته وبيانه.

---

[1] روح المعانى ١٣٩/١٥.

الخاتمة

الحمد لله الذى أنزل القرآن على خير الأنام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وجعله نورا وهدى ورحمة، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به هدى الى صراط مستقيم. وبعد:

فهذا بحث يتعلق بحديث القرآن العظيم عن "الليل والنهار" تأملت فيه أسلوب القرآن العظيم عن هذه الظاهرة الكونية، وما حواه هذا الأسلوب من لمحات بلاغية، تشبيه كانت أم استعارة أم حقيقة أم مجاز.

فجاءت كلها فى أسلوب فخم، وتعبير راق متعال، فيه الخطاب تارة، والتهكم والسخرية والتعريض تارة أخرى، فقد تنقل بنا الأسلوب من بلاغة الى بلاغة، مراعيا فى ذلك السياق ومقتضى الحال، فجاء الكلام فى أرقى بلاغة، وأفصح بيان.

أضف إلى ذلك ما حكاه القرآن العظيم من مشاهد فى تلك الآيات الشريفة لعباده الصالحين العابدين لله نهارا، المتهجدين ليلاً، وما أسجاه عليهم من صفات هم أحق بها وأهلها، مما أضفى على الآيات بهاء ورونقا وجمالا، فجاءت فى ثوب بلاغى بديع.

والقرآن العظيم فى حديثه عن "الليل والنهار" لم يسلك طريقا واحدا، وإنما وجدناه تارة يحدثنا عن ذلك باعتبار أن الليل والنهار آية كبرى من آيات الله تعالى فى الكون، الناطقة بالوحدانية والألوهية والقدرة لله تعالى.

وتارة يأتى السياق فيه ما فيه من الامتنان على الخلق باختلاف الليل والنهار، وما يحدث فى الكون بسبب هذا الاختلاف، من آثار ومنافع للعباد، من انتشار فى النهار وسعى للرزق، ومن نوم وسكينة وهدوء فى الليل، بجانب ما للكائنات الأخرى من تأثر بتلك الظاهرة من حيوان ونبات.

ونظرا لأهمية الليل والنهار فقد جاءت آيات قرآنية أقسم فيها المولى سبحانه وتعالى بالليل والنهار إشعارا بجلال المقسم عليه وعظمته.

كما وجدنا آيات كثيرة فيها حث للعباد على التقرب إلى الله تعالى فى الليل والنهار بشتى القربات من إنفاق للمال فى سبيل الله تعالى، وتهجد وسجود بالليل، وتذلل ودعاء، بجانب السعى إلى الرزق نهارا ابتغاء مرضات الله تعالى.

نتائج البحث:

١ـ ألقى هذا البحث مزيدا من الضوء على ظاهرة الليل والنهار مظهرا أهميتها للمخلوقات كافة والإنسان خاصة.

٢ـ أكد هذا البحث تنوع السياق القرآنى فى آيات الليل والنهار حيث وافق ذلك الحال وجاء متناسقا مع الغرض العام، فمن قسم بالليل والنهار إلى الحديث عن ذلك بصفته وقت للعبادة إلى الامتنان بهذه النعمة.... إلخ.

٣ـ ربط هذا البحث بين آيات القرآن العظيم التى تناولت الليل والنهار موضحا الفروق بينها سواءً فى البدء أو الختام.

٤ـ فى هذا البحث ذكر لأهمية الليل والنهار وكيف لمس ذلك الناس قديما وحديثا، فمنهم من ضل وعبد الشمس، ومنهم من جعل لها إلها يعبد من دون الله، وكان أيضا منهم الموحد المقر بالألوهية لله تعالى خالق الكون كله ومبدعه، ولذلك جاء النهى القرآنى عن عبادة الشمس وغيرها.

وغير ذلك مما هو مبثوث فى ثنايا البحث ، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه سبحانه، وعلما ينتفع به إنه سميع الدعاء. والحمد لله أولا وأخيرا ودائما.

المصادر والمراجع

١- البرهان فى علوم القرآن- للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- ط دار الجيل بيروت- ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٢- التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول -ﷺ- للشيخ منصور على ناصف ط صوت الأزهر.
٣- التحرير والتنوير - للشيخ الطاهر بن عاشور- ط الدار التونسية للنشر.
٤- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإمام محمد الرازى- ط/ دار الفكر- الطبعة الثالثة- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٥- الجغرافيا العملية والخرائط. د/ أحمد أحمد مصطفى. ط دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٩٦م.
٦- حاشية محى الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوى ط دار صادر بيروت.
٧- الحياة العربية من الشعر الجاهلى -د/ أحمد محمد الحوفى- ط نهضة مصر- الطبعة الخامسة.
٨- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى- للشيخ أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوس البغدادى ط/ دار الفكر.
٩- الكشاف عن حقائق التنزيل للإمام محمود بن عمر الزمخشرى- ط/ دار الريان للتراث - الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٠- مجلة الإعجاز العلمى- رابطة العالم الإسلامى- العدد ٦ محرم ١٤٢١م.
١١- مدارك التنزيل وحقائق التأويل- للإمام أبى البركات عبد الله أحمد بن محمود النسفى- ط دار السعادة.
١٢- مدخل إلى الشعر الجاهلى- د/ محمد زغلول سلام ط/ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٥م.
١٣- من أسرار التوكيد فى نظم القرآن الكريم- د/ محمود عبد العظيم صفا- ط دار الكتاب الجامعى بمصر- ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م.
١٤- من أسرار النداء فى القرآن الكريم- د/ بغدادى إبراهيم الصحابى- ط مركز الانتاج والتدريب الصناعى.
١٥- من بلاغة القرآن الكريم فى سورة الفجر د/ محمد محمد الطاهر ط/ جنوب الوادى.
١٦- نظرات فى البيان- د/ محمد عبد الرحمن الكردى- مطبعة السعادة بمصر ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.